

تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال : { إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * } وجعلها كلمة باقية في عقبه { أي هذه الكلمة وهي عبادة الأوثان وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهي لا إله إلا الله } جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم E { لعلمهم يرجعون } أي إليها .

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله D : { وجعلها كلمة باقية في عقبه } يعني لا إله إلا الله لا يزال في ذريته من يقولها وروي نحوه عن ابن عباس Bهما وقال ابن زيد : كلمة الإسلام وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة ثم قال جل وعلا : { بل منعت هؤلاء } يعني المشركين { وآباءهم } أي فتناول عليهم العمر في ضلالهم { حتى جاءهم الحق ورسول مبين } أي بين الرسالة والندارة { ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإننا به كافرون } أي كابروه وعاندوه ودفعوا بالصدور والراح كفرا وحسدا وبغيا { وقالوا } أي كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس { لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم } أي هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف قاله ابن عباس Bهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وابن زيد وقد ذكر غير واحد منهم أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي وقال مالك عن زيد بن أسلم والضحاك والسدي : يعنون الوليد بن المغيرة ومسعود بن عمرو الثقفي وعن مجاهد : يعنون عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي وعنه أيضا أنهم يعنون عتبة بن ربيعة وعن ابن عباس Bهما بن عمرو بن وحبيب المغيرة بن الوليد يعنون أنهم هما B وعنه قريش جابرة من جبارا : هما B عمير الثقفي وعن مجاهد : يعنون عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف وقال السدي : عنوا بذلك الوليد بن المغيرة وكنانة بن عمرو بن عمير الثقفي والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدين كان قال الله تبارك وتعالى رادا عليهم في هذا الاعتراض { أنهم يقسمون رحمة ربك ؟ } أي ليس الأمر مردودا إليهم بل إلى الله D والله أعلم حيث يجعل رسالته فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا وأشرفهم بيتا وأطهرهم أصلا .

ثم قال D مبينا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة فقال : { نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا } الآية وقوله جلت عظمتهم : { ليتخذ بعضهم بعضا سخريا } قيل معناه ليسخر بعضهم

بعضا في الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا قاله السدي وغيره وقال قتادة والضحاك
ليملك بعضهم بعضا وهو راجع إلى الأول : ثم قال D : { ورحمة ربك خير مما يجمعون } أي
رحمة الله بخلقهم خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا ثم قال سبحانه
وتعالى : { ولولا أن يكون الناس أمة واحدة } أي لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن
إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال هذا معنى قول
ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وغيرهم { لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة
ومعارج } أي سلاسل ودرجا من فضة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد وغيرهم {
عليها يظهرون } أي يصعدون ولبيوتهم أبوابا أي أغلاقا على أبوابهم { وسررا عليها يتكئون
} أي جميع ذلك يكون فضة { وزخرفا } أي وزهبا قاله ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد .
ثم قال تبارك وتعالى : { وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا } أي إنما ذلك من
الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى أي يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في
الدنيا مآكل ومشرب ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها كما
ورد به الحديث الصحيح وورد في حديث آخر [لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى
منها كافرا شربة ماء] أسنده البغوي من رواية زكريا بن منظور عن أبي حازم عن سهل بن
سعد B عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره ورواه الطبراني من طريق زمعة بن صالح عن أبي
حازم عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم [لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما
أعطى كافرا منها شيئا] ثم قال سبحانه وتعالى : { والآخرة عند ربك للمتقين } أي هي لهم
خاصة لا يشاركون فيها أحد غيرهم ولهذا لما قال عمر بن الخطاب B لرسول الله صلى الله عليه
وسلم حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى صلى الله عليه وسلم من نسائه فرآه على رمال
حصير قد أثر بجنبه فابتدرت عيناه بالبكاء وقال : يا رسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هما
فيه وأنت صفوة الله من خلقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس وقال : [أو في
شاك أنت يا ابن الخطاب ؟] ثم قال صلى الله عليه وسلم أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في
حياتهم الدنيا [وفي رواية] أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة [وفي الصحيحين
أيضا وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا
تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة] وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا
لحقارتهم كما روى الترمذي وابن ماجه من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم [لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة
ماء أبدا] قال الترمذي : حسن صحيح